كلمة آل الفقيد
للدكتور زكريّا جَقَّل

قال تعالى:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾

وقال تعالى:

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾

صدق الله العظيم

السيدة الدكتورة نجاح العطار نائبُ رئيسِ الجمهورية.

السيدُ الدكتور عامر ماردیني وزيرُ التعليم العالي.

السيدُ الدكتور مروان المحاسني رئيسُ مجمعِ اللغة العربية بدمشق.

السيدُ الدكتور عمرو الأرمنازي المديرُ العامُّ لمركز الدراسات والبحوث العلمية.

السيدُ الدكتور حسان الكردي رئيسُ جامعة دمشق.

السادةُ الحضور:

نجتمعُ اليومَ في حضرة فقيدِنا الغائبِ الحاضر الدكتور عبد الله واثق شهيد، الذي غابَ عنا جسدًا ولكنه حاضرٌ بعلمِه وأخلاقِه، وبما تركه لنا من إرثٍ مُزهرٍ على امتدادِ الوطنِ الحبيب.

ويشرفني نيابةً عن أسرة الفقيدِ أن أتقدَّمَ بجزيلِ الشكرِ والعرفانِ لمبادرتكم هذه، وللسادةِ الأفاضلِ الذين حضروا هذا الحفل، ورافقوا الفقيدَ في رحلة عملِه وعطائِه،

كما نتوجَّه إليكم بوافر الشكر لما ذكرتموه من علمٍ ومآثرَ لفقيدِنا، فكانَ لنا في كلماتِكم ما يُخفِّفُ مِن مُصابِنا ويَشدُّ من أزرنا، ويبقى شهادةً نفتخرُ بها لتاريخٍ طويلٍ وسِيرةٍ طيّبةٍ للفقيدِ، ويدلُّ أولًا وأخيرًا على نُبلٍ ورِفعةٍ في الأخلاقِ وإخلاصٍ منقطعِ النظيرِ تُكِنُّونهُ لفقيدِنا رحمَه الله.

في حضرةِ ذكراهُ نأتيهِ محمَّلينَ بالسلامِ والدعاءِ له، ليرى فينا غرسًا زرعَه طَوالَ سِني عطائِه وعملِه، في حضرةِ ذكراه نَقف بإجلال أمامَ ما تركه لنا من إرثٍ لا ينضبُ تتوارثُه الأجيالُ وتذكره ما بقيتْ. في غيابه المُفْجعِ ورحيلِه المُوجعِ يبقى فينا أبًا لا يُعوَّضُ، علّمَ فأبدعَ ، صنعَ فأجادَ ، أنجَز فأعجزَ، رحل فأتعبَ.

لقد عرفتم فقيدنا رجلَ علمٍ وفكرٍ وأدبٍ، وعرفتموه مُربِّيًا وأستاذًا جامعيًّا ومسؤولًا في مواضع مختلفة، لكننا عرفناه فوق ذلك أبًا حنونًا وأخًا نصوحًا، برغمِ مشاغلِه الكثيرةِ واهتمامِه بعملِه حتى في الأيام الأخيرةِ من حياته. لقد كان يهتمُّ بعائلته صغيرِها وكبيرِها، ولم يكن لينسى رحمه الله رفاقَ العمرِ والصحبةِ ورفاقَ العملِ العلميِّ والأكاديميِّ، بل كان دائمَ السؤالِ والحديثِ عنهم، يُكِنُّ لهم كلَّ الحبّ والتقدير، ويُثني على أعمالهم البديعة وأخلاقِهم الرفيعة.

لقد كنتُ محظوظًا بمُلازمةِ فقيدِنا في مراحلَ مختلفةٍ من حياتِه، وتلكَ الصحبةُ تركتْ لديَّ ذكرياتٍ لا تُمحى، ومَنحَتني فرصةَ التعرفِ عن قربٍ بكثيرٍ من الجوانبِ الإنسانيةِ في شخصيّتِه، والمواقفِ النبيلةِ في حياتِه. كما استفدت من فكرِه وطريقةِ محاكمتِه المنطقية، وإليه يرجعُ الفضلُ الكبيرُ في صقلِ معارفي، وتَفتُّحِ الآفاقِ أمامي، كما هو حال الكثيرين ممن تَربَّوْا أو تلمذوا له أو نهلوا من علمِه وتوجيهاتِه.

لقد كانت خسارتُنا كبيرةً، لذلك أقفُ اليومَ، وبعدَ أربعينَ يومًا من الصدمةِ والذهولِ، لا لأرثيَهُ أو أُعدِّدَ مآثرَهُ التي هي اليومَ على كلِّ شفةٍ ولسان، بل لأقفَ وقفةً

وجدانيّةً وأخاطِبَ روحَه الطاهرةَ علَّنا نستلهم منها بعضَ معاني العطاءِ والوفاءِ والإحسانِ والتضحية.

لقد تعلمنا منه أن للنجاحِ قيمةً ومعنًى، وتعلَّمنا كيف يكونُ الإخلاصُ والتفاني وإتقانُ العمل. تعلمنا الصدقَ والأمانة، ومن قلبِه الكبير، ووجدانه العميق عرفنا الحبَّ والإيمانَ والحنان. علّمنا كيف نرى الحياةَ بشموخٍ وكبرياء، علّمنا كيف ننسجُ الصداقةَ الشفافةَ، علّمنا كيفَ تكون الصحبة بين الكبيرِ والصغير.

تعلمنا منه التواضعَ واحترامَ الإنسان، تعلَّمنا منه الصّدقَ والبعدَ عن النفاق، تعلمنا منه رحابةَ الصدرِ وعدمَ ردِّ صاحبِ الحاجةِ، وكلُّ مَن عرفَه يعلَمُ أن بيتَه قبلَ مكتبِه كان مفتوحًا لكلِّ صاحبِ سؤالٍ أو حاجةٍ، ولا يُرَدُّ خائبًا من طرقَ بابَه.

كما تعودنا مشاركتَه الأقاربَ والأصدقاءَ في أتراحِهم قبلَ أفراحِهم برغم أعبائِه ومشاغلِه وعناءِ السفرِ ومشقةِ الطريقِ حتى في الأيامِ الأخيرةِ من حياتِه. أحيانًا كنا نضطرُّ أن نُخفي أو نؤجِّلَ بعضَ هذه الأخبارِ حرصًا على سلامته، ولعلنا نذكرُ حادثَ السيرِ الذي تعرضَ له وكادَ يُودِي بحياته لولا العنايةُ الإلهيةُ عندما كان مسافرًا إلى حلبَ من أجل تقديمِ العزاءِ لأحدِ الأقارب.

لقد كان – رحمه الله – سبّاقًا إلى فعلِ الخيرِ والإحسانِ لكلِّ محتاجٍ، وخاصةً الأيتام وذوي الاحتياجاتِ الخاصة. لم يكن يألو أو يدخرُ جهدًا لتأمين مستقبلهم أو فرصةِ عملٍ لهم، وكان السندَ والأبَ لأيتامٍ نسُوا يُتْمَهم بما أحاطَهم من اهتمامٍ ومحبة.

وهنا استذكر قول الشاعر:

ماذا أقولُ؟ وهل كلامي منصفٌ ... في حقِّ قُطبٍ راسخٍ ربّاني

لو قلتُ دهرًا ثم دهرًا لم أكنْ ... أنصفتُ منه لقاءَ ما رباني

لم يمـضِ يـومٌ في حيـاةٍ دونَ معـ ـروفٍ لـه يُوليـه للإنسـانِ
وكأنما المعروفُ عندكَ سادسُ الصـ ـلواتِ أو ركـنٌ مـن الأركـانِ
هـو ذا فـؤادي قـبرُ روحِـكَ «واثـقٌ» ودَعِ الـترابَ يلـفُّ بـالجثمانِ
فالجسـمُ يَـبلى والخلـودُ لـروحِ مَـن ربَّـى بروحـيَ بـذرةَ الإيـمانِ
لا، لا تُعـزُّوني وعَـزُّوا هـذه الـد ـدنيا التـي خسـرَتْ عظـيمَ الشّـانِ

رحم الله أبا زيادٍ لقد فقدناه، وتلك مشيئة الله، ولا رادَّ لمشيئته، ولكنه سيبقى حاضرًا في ذاكرتنا حيًّا في ضمائرنا، بما كان يمثِّلُه من قيمٍ رفيعةٍ ومواقفَ إنسانيّةٍ جعلت منه مثالًا نادرًا يُحتذى، عَمِلَ وتركَ الكثيرَ من الشواهدِ على أعمالِهِ وإنجازاته، فثَقُلتْ موازينُ إحسانِه في الدنيا، ونرجو من الله تعالى أن يرفعَ مقامَه في الآخرة، وأن يجزيَه الجنةَ التي وعدَ بها عبادَه المتَّقين، إنه سميعٌ مجيب.

ورد في الحديث الشريف: «إذا مات المرءُ انقطعَ عملُه إلا مِن ثلاث: صدقةٌ جارية، وعلمٌ يُنتفعُ به، وولدٌ صالح يدعو له»، ونحمد الله أن لفقيدنا في كل منها نصيبًا، وأَستعيرُ هنا قول الشاعر:

«ما ماتَ من ماتَ محمودًا خصائله»

نعم إننا محزونونَ على فراقِكَ أيها الحبيبُ، ولكن لا اعتراضَ على إرادةِ الله، وها أنت عُدتَ إلى الأحبةِ الذينَ فقدتَهم، عُدتَ إلى جوارِ والدِك، الذي طالما وقفتَ في المحرابِ الذي كانَ يُصلِّي فيه بالناسِ وأنتَ تزورُ مدينةَ حارم، وعُدتَ إلى والدتِك التي رحلتْ وأنت بعيدٌ عنها، وكنتَ دومًا تذكر رحيلَها بحسرةٍ وحُرقة. وعُدتَ إلى رفيقةِ دربِكَ التي طالما ذكرتَ الشوقَ والاشتياقَ لها، وشعرنا كلُّنا بالفراغِ الذي تركه رحيلُها، فلم نعد نرى السعادةَ تَشِعُّ من عينيك.

عهدًا من الأبناءِ والأحفادِ ولكلِّ من يَحفظُ معروفًا أنت صانعُه أن نكونَ خيرَ ما

تركتَ من إرثٍ، وأن نكونَ خيرَ خلفٍ لخيرِ سلفٍ، وأن نُتابعَ مسيرةَ العلمِ والتعليمِ التي ربَّيتَنا عليها، وأن نُتابعَ مسيرةَ عطائكَ في جميعِ المجالات.

انتقلَ فقيدُنا رحمَه اللهُ إلى جوارِ ربِه وبلدنا يمرُّ بظروفٍ صعبةٍ وقاسيةٍ على الجميعِ، إلا أنَّ الكثيرين وأَنتمْ جَميعًا في طليعتِهم كُنتمْ حَريصينَ على مشاركتِنا أحزاننا والوقوفِ معنا في أثناءِ مرضِه وحتى هذه اللحظة، فإنْ كنَّا عائلتَه الصغيرةَ فَأَنْتُمْ كما كانَ يراكم عائلتُه الكبيرة.

وختامًا باسمي وباسم عائلةِ الفقيدِ وعمومِ آلِ شَهيدٍ نتوجه بالشكر والعرفان لكل من ساهم في تخفيف مُصَابنا، داعيًا الله عزَّ وجلَّ أن يحفظَكم وعائلاتِكم ويجزيَكم خيرًا عن صادقِ مشاعرِكم ومشاركتِكم. وأخصّ بالشكر الجزيل:

السيدة الدكتورة نجاح العطار نائبَ رئيسِ الجمهورية، والسيد وزير التعليم العالي، والسيد رئيس المجمع وأعضاءَه، والسيد المدير العامّ لمركز الدراساتِ والبحوثِ العلمية، والسيد رئيسَ جامعة دمشق، والسيد المديرَ العامّ لهيئة الطاقة الذرية، وجميعَ الفعالياتِ الحكوميةِ والشعبيةِ التي وقفَت بجانبنا وساهمت في تخفيفِ مصابنا.

ولا يسعني في الختامِ إلا أن أقول رَحمَ اللهُ فقيدَنا، ورحمَ أمواتَنا.

والسلامُ عليكمْ.